الفصل الرابع

العلاقات الاجتماعية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو

أ. مكانة المرأة في مجتمع الكانم والبرنو .

ب. دور الهجرات المغربية في التكوين السكاني لمجتمع الكانم والبرنو

ج. تأثر العادات والتقاليد في الكانم والبرنو ببلاد المغرب .

د. المظاهر الاجتماعية في الكانم والبرنو وتأثرها ببلاد المغرب .

1- الملابس 2- الأعياد والاحتفالات

3- العمارة 4- الأسرة .

5- الطبقات الاجتماعية .

مكانة المرأة في مجتمع الكانم والبرنو

لقد تمتعت المرأة في مجتمع الكانم والبرنو بمكانة مميزة سمحت لها بممارسة أدوار كبيرة داخل هذا المجتمع ، فبالإضافة إلى مهمتها المتمثلة في أعمال البيت وتربية الأطفال كان عليها أن تقوم بمهام خارج البيت مثل جلب الماء من النبع وجلب الحطب وكان بعض النساء يساعدن أزواجهن في أعمال الزراعة[1]، ولعل أبرز ما يدل على مكانة المرأة في مجتمع الكانم والبرنو أن وراثة الحكم كانت تنتقل عن طريق ابن الأخت وفي حالة عدم وجود ه تنتقل إلى ابن الخالة [2]عند قبائل الزغاوة ، كذلك كانت المرأة تتمتع بالحرية عند قبائل الكانوري بل وتتدخل في شئون إدارة القبيلة[3] .

لقد استمرت المكانة المميزة للمرأة في مجتمع الكانم والبرنو بعد انتشار الإسلام (حيث لعبت الملكة الأم دوراً باروا في برنو وليس من باب الصدفة أن يذكر الديوان الأصول القومية لأمهات الملوك العشرة الأوائل)[4] حيث استمر الكثير من مايات الكانم والبرنو ينتسبون إلى أمهاتهم ولو أطلعنا على ديوان الكانم والبرنو لوجدنا هذه الحقيقة حيث ذكر عدد من المايات مقترنين بأسماء أمهاتهم مثل بيري بن فاطمة ودونما بن كنتا وعبد الله بن زينب وإدريس بن عائشة وغيرهم[5] ، ولم تكن مكانة المرأة اسمية فقط بل تذكر المصادر إن أم الماي **(الماجيرا)** بصفة عامة كانت تلعب دوراً كبيراً في المشاركة في الحكم حيث كانت لها الكلمة النافذة في شئون الحكم دون مراجعة فبإستطاعتها أن تغير حكام الأقاليم وأن تولي وتعزل

---

[1] -فضل كلود – المرجع السابق – ص230.

[2] – الشاطر بوصيلي – المرجع السابق –ص59– لقد انتهى هذا التقليد تدريجياً بعد انتشار الإسلام في بلاد الكانم والبرنو حيث أصبحت الوراثة تنتقل إلى الابن بعد اختلاط سكان الكانم ببلاد المغرب عن طريق التجارة والعلاقات الرسمية بين الحكام .

[3] إبراهيم طرخان – المرجع السابق – ص62 .

[4] كرم كمال الدين الصاوي ــ ديوان الكانم والبرنو ــ نموذج مبكر للعروبة والاسلام في تشاد ــ ندوة اللغة العربية في تشاد ، الواقع والمستقبل ــ انجامينا ــ جامعة الملك فيصل ــ 2001 ــ ص7

[5] -انظر ديوان الكانم والبرنو

من تشاء من الحكام وهي المسئولة عن شئون القصر[1] ، ولدينا نموذجان يبينان مدى سلطة الماجيرا :

الأول ما ذكرته المصادر عن موقف زينب أم الماي بيري [2] (546-572 هـ /1151-1176 م) عندما أقدم على مخالفة الشريعة الإسلامية وقتل أحد اللصوص (فسمعت أمه خبر قتل السارق ومع ما قال الله تبارك وتعالى:" والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما"[3]،فلذلك سجنته أمه ، فصبر هو لذلك حتى سنة كاملة) [4] وأبرز ما يمكن إستنتاجه من هذه القصة قوة نفوذ الماجيرا بالإضافة إلى شدة إحترام الماي وطاعته المطلقة لأمه ،كذلك يمكن أن نستنتج منها تمسك حكام الكرنم والبرنو بأحكام الشريعة الإسلامية ومدى ثقافة الماجيرا زينب وإطلاعها على القرآن الكريم .

أما النموذج الثاني الذي يوضح قوة سلطة المرأة في الأوساط السياسية لدولة الكانم والبرنو ما ذكر من أن الماجيرا عائشة أم الماي إدريس ألوما (978-1012 هـ / 1570-1603م) التي تقلدت مهام الحكم خلال وصايتها على ابنها من سنة(971 -978هـ/ 1563 - 1570 م)[5] واشتهرت خلال هذه الفترة بحسن التدبير والحزم ، ولم ينته دورها السياسي بتولي ابنها إدريس لمقاليد الحكم بل أصبحت مستشارة له حيث أشارت عليه بإرسال السفارات إلى بلاد المغرب

---

[1] -طرخان – المرجع السابق – ص157 .

[2]- الماي بيري / أحد مايات دولة الكانم والبرنو وقد استمر 26 سنة (546-572هـ /1151-1176م) وقد اعتمد البعض على رواية قتله للسارق وسجن امه له ليتهموه بالضعف ، ولكن الحقيقة ان هذه الرواية تدل على طاعته المطلقة لأمه وتدل من جهة أخرى على مكانة المرأة في مجتمع الكانم والبرنو .

(انظر ديوان الكانم والبرنو –ص34، فضل كلود –المرجع السابق –ص111)

[3]- سورة : المائدة، الاية 38)

[4]- ديوان الكانم والبرنو –ص34.

[5]- لقد توفي والد ادريس الوما وترك ابنه صغيراً فتولت امه عائشة الوصاية عليه وبنت له قصراً فخماً على نهر يوبيه لتبعده عن مؤامرات البلاط وكان لاهتمامها بتربيته وتأثير شخصيتها دور بارز في اكتسابه الصفات التي أهلته للنجاح في ادارة شئون المملكة داخلياً وخارجيا (انظر – ابراهيم صالح – المرجع السابق – ص88) .

لتقوية العلاقات الاقتصادية والحصول على الأسلحة النارية لجيشه[1] ، وكذلك مما يدل على مكانة المرأة في مجتمع الكانم والبرنو وثقة المايات بها وجود تقليد في البلاط الرسمي للدولة وهو قيام الأخت الكبرى للماي،ويطلق عليها (الماجرام) Magram بالإشراف علي تربية أبناء أخيها حيث كان الماي يرسل أولاده منذ الصغر إلى قصر أخته الكبرى حتى يبلغوا سن الرشد ثم يرسلون إلى نواحي برنو للتدريب على شئون الحكم [2]، وبقدر ما يدلنا هذا التقليد على مكانة المرأة في البلاط الحاكم يدلنا أيضاً على القدرات الإدارية والتربوية التي تجعل المايات يطمئنون على تربية أولادهم تربية تناسب ما ينتظرهم من مسئوليات سياسية ، من جهة أخرى فإن مكانة المرأة في البلاط الحاكم في الكانم والبرنو قد انعكست على الحياة الادبية في الدولة حيث ذكر بالمر(Palmer) مجموعة من القصائد التي تشيد بالماجيرا والماجرام وتتحدث عن صفاتها وأعمالها [3] .

هذه صورة موجزة عن مكانة المراة في مجتمع الكانم والبرنو وسنحاول إبراز مظاهر التأثير الاجتماعي للعلاقة مع بلاد المغرب على مجتمع الكانم والبرنو ، وأول ما نلاحظه في هذا المجال التشابه الكبير بين أوضاع المرأة في بلاد المغرب وبلاد الكانم والبرنو فيما يخص القبائل التي هاجرت من بلاد المغرب إلى منطقة بحيرة تشاد مما يؤكد التأثير الاجتماعي لهذه القبائل على تلك المنطقة فمن التقاليد المعروفة عن قبائل التيبو سمو مكانة المرأة عندهم [4] أما الطوارق فالتارقي (مهما كانت منزلة أسرة والده واعتبارها إذا لم تكن أمه من الأحرار

---

[1] -القشتالي – المصدر السابق –ص67 ، طرخان – المرجع السابق ص158 .

[2]- طرخان – المرجع السابق –ص158 .

[3] -Palmer- the Bornu Sahara- P188 .

[4] -طرخان – المرجع السابق –ص29 .

فلا يعد من القوم) [1] ، ومن جهة أخري فقد كانت التسمية بالأم أمراً شائعاً في بعض الدول التي ظهرت في بلاد المغرب ففي دولة المرابطين أشتهر محمد بن فاطمة [2] وابن غانية الذي أستطاع مع إخوته تأسيس دولة بقيت تحمل شعار المرابطين لمدة من الزمن وعرفت بدولة بني غانية [3] .

دور الهجرات المغربية في التكوين السكاني لمجتمع الكانم والبرنو

لقد ذكرنا في الفصل التمهيدي من هذا البحث أن منطقه بحيره تشاد كانت منطقة جاذبة للعناصر السكانية التي حولها بحكم وفرة خيراتها وموقعها المتوسط ، وقد أثر على التكوين السكاني لمجتمعها تلك القبائل التي كانت تسكن شمال هذه المنطقة وأجبرتها الظروف الطبيعية على التحرك جنوباً [4] والاستقرار بشكل نهائي في منطقة بحيرة تشاد ،ولعل أبرز القبائل التي هاجرت من الشمال واستقرت في منطقة بحيرة تشاد مايلي :

---

[1] –محمد سعيد القشاط – المرجع السابق – ص103 .

[2] –أحد قادة المرابطين عبر الى الأندلس وشارك في المعارك ضد الفرنجة ، ثم عين واليا على بلنسية ، كما تولى حكم إشبيلية ، توفي سنة 515هـ– 1121م – حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته – ص 57 .

[3] –القشاط – المرجع السابق – ص185 .

* دولة بني غانية : تأسست هذه الدولة على يد الاخوين يحي ومحمد وكانا من قادة المرابطين في الاندلس وبعد وفاة يحي إستولى محمد على جزيرة ميورقة وأستقل بها ودخل بنو غانية في صراع مع الموحدين (انظر – المراكشي – المصدر السابق – ص342).

[4] –من المعروف أن المياه بدأت تقل تدريجياً في مناطق الصحراء نتيجة للتغيرات المناخية التي حدثت في حدود سنة 3000ق. م مما أجبر السكان على مغادرة موطنهم إلى حيث توجد المصادر الثابتة للمياه ، وكان أقرب إلى هذه المصادر هي منطقة بحيرة تشاد بمعنى أن من أبرز نتائج الجفاف تناقص السكان في الجزء الشمالي من المنطقة وتمركزهم في الجنوب (انظر – أمين الطيبي – كانم وبرنو بالسودان الأوسط في العصر الوسيط – ص115).

1- قبائل التيبو :

لقد عاشت قبائل التيبو في مناطق جنوب فزان أو جبال تيبيستي ، وعاش أغلب التيبو حياة تميزت بالانتقال المستمر من مكان إلى آخر وقد وصفهم البعض بأنهم يعيشون على قطع الطرق التجارية ولا يلتزمون بالعهود والمواثيق [1] ، كما وصفهم البعض الآخر بكثرة الحروب والغارات واعتمادهم على نهب قطعان الماشية واختطاف النساء والأطفال [2]، ولكننا نرفض التعميم في مثل هذه الأمور فمن الصعب أن تصدق أن قبيلة بأكملها كانت تعتمد على السلب والنهب واختطاف النساء والأطفال ثم إن مثل هذه الصفات التي قد تكون موجودة لدى بعض أفراد هذه القبيلة قد تقلصت إلى حد كبير بعد اعتناق التيبو للإسلام بحكم دور هذا الدين الجديد في تهذيب الأخلاق وانتشار النظام والأمن ومما يؤكد هذا ما ذكر من أن التيبو أصبحوا دعاة لهذا الدين وكان لهم دور في نشره في الكانم والبرنو [3] .

لقد بدأ التيبو في التسرب إلى منطقة بحيرة تشاد والمناطق المجاورة لها منذ القرن الثامن الهجري (الثاني الميلادي) بسبب النقص التدريجي للمياه في المناطق الشمالية إلا أن هجرتهم الكبيرة التي من المرجح أنها اسهمت في توطيد العلاقات الاجتماعية بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب جاءت بعد القرن الخامس الميلادي (الحادي عشر الهجري) والمرجح أن سبب هذه الهجرة بالإضافة إلى العوامل الطبيعية يرجع إلى ضغط قبائل بني سليم وبني هلال[4] التي اكتسحت بلاد المغرب خلال تلك الفترة ، وقد اندمج التيبو مع السكان المحليين عن طريق

---

[1] -الوزان – المصدر السابق – ج 2 – ص216.

[2] - سليجمان – المرجع السابق – ص135 .

[3] - طرخان – المرجع السابق – ص28 .

[4] - بني هلال وبني سليم / من القبائل التي كانت تقطن شبه الجزيرة العربية حيث كان مسكن بني هلال جبل غزوان قرب الطائف ، بينما كانت مساكن بني سليم في مناطق قريبة من المدينة ، وقد انتقلت هذه القبائل إلى مصر وبعد ظهور الخلاف بين المستنصر والمعز بن بلكين أرسل المستنصر هذه القبائل إلى بلاد المغرب حيث دخلت في حروب متصلة مع المعز ثم انتشروا في بلاد المغرب وكان لهم دور في تعريب المنطقة ، انظر ابن خلدون – المصدر السابق – ج6- ص13 .

التزاوج وجمعوا بين الصفات العربية والزنجية بسبب انـدماجهم مـع الزنـوج وتأثرهم بالدماء العربية [1] ، وقد دخل التيبو في خدمة سـلطة الكـانم والبرنـو وأصبحوا يكونون نسبة كبيرة من جيش الكانم والبرنو خلال القرن العاشر الهجري القرن السادس عشر الميلادي) [2]، ومن جهة أخرى فقد وجد الكثير من التـشابه في الحياة الاجتماعية بين التيبو والعناصر المحلية في منطقة بحيرة تشاد خاصـة فيما يتعلق بسمو مكانة المرأة عند الطرفين [3]وكذلك تشابه اللغة التي يتحدث بها التيبو مع لغة الكانوري [4]، وهكذا لعبت هجرة التيبو إلى بلاد الكـانم والبرنـو دوراً كبيراً في التواصل الاجتماعي بين دولة الكانم والبرنـو وبـلاد المغـرب ، خاصة إذا عرفنا أن التيبو لم ينتقلوا إلى دولة الكانم والبرنو بكاملهم بل بقى جزء منهم يقطن منطقة جنوب فزان وجبال تيبستي ولاشك أن أواصر الدم بين أبنـاء هذه القبيلة قد اسهمت في تطور العلاقات الاجتماعية بين منطقـة بحيـرة تـشاد ومنطقة فزان .

2-الطوارق :

ينتمي الطوارق إلى قبائل صنهاجة البربرية التي ترفـع نـسبها إلـى حميـر باليمن[5] ويرى بعض المؤرخين أنهم انتقلوا إلى شمال أفريقيا بعـد خـراب سـد مأرب ويستند في إرجاعهم إلي اليمن إلى العثور في منطقة المكلا باليمن علـى نقوش مكتوبة بالحروف نفسها التي يكتب بها الطوارق[6]وبعد وصول الإسلام إلى

---

[1]– Palmer the Bornu Sahara .P125 .

[2]- طرخان – المرجع السابق – ص28وص29 .

[3]- لقد تناولنا مكانة المرأة في المبحث الأول من هذا الفصل .

[4]- فضل كلود – المرجع السابق – ص73 .

[5] – ابن خلدون – المصدر السابق – ج 6– ص110 .

[6]- القشاط – المرجع السابق –ص23.

منطقة بلاد المغرب اعتنق الطوارق هذا الدين [1] وعرف الطوارق ظاهرة الانتساب إلى العرب المسلمين[2] حيث كانوا يرجعون نسبهم القديم الى حمير بن سبأ[3] .

لقد رأينا في حديثنا عن العلاقات السياسية دور الأسرة الماغومية التي تنتمي إلى نبلاء الطوارق في تأسيس دولة الكانم والبرنو ، وبالإضافة إلى هذا الدور السياسي لعب الطوارق دوراً مهماً في توطيد العلاقات الاجتماعية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو عن طريق التزاوج مع السكان المحليين[4]،وقد أختلط الطوارق بدرجات متفاوتة مع الزنوج بحسب أماكن إقامتهم حتى أن منهم من صارلونه أسود لايمكن تفرقته من العناصر السوداء ،وقد بدأ هذا الاختلاط مع بداية هجرات الطوارق إلى منطقة تشاد [5]في أوائل القرن الخامس – السادس الهجري / أواخر القرن الحادي عشر – الثاني عشر [6] .

ويرى بعض الباحثين أن هجرة الطوارق إلي منطقة بحيرة تشاد لم تكن شاملة إنما كانت على شكل هيئة أرستقراطية حاكمة تملك مصادرالقوة والنفوذ واستطاعت عن طريقها أن تخضع شعب الزغاوة[7]،ولكننا نرجح هنا أن هذه الهجرة لم تقتصر

---

[1] –السعدي – المصدر السابق – ص25، التونسي – المصدر السابق – ص59 .

[2] –لقد عرفت هذه الظاهرة في أغلب مناطق السودان الغربي والأوسط لتؤكد حرص أغلب الأسر الحاكمة على ربط نسبها بأصول عربية إسلامية حيث يدعي بعض سكان غانا الانتساب إلى سلالة علي بن أبي طالب بينما يرجع بعض مؤسسي مملكة مالي نسبهم بلال بن رباح ، كما ذكر أن ذا الأيمن أحد ملوك صنغاي يرجع إلى أصول إسلامية (انظر – الادريسي – المصدر السابق – ص23 ، القلقشندي – المصدر السابق –ص298).

[3]- ابن خلكان – المصدر السابق – ج3 – ص476.

[4] –طرخان – المرجع السابق – ص34 .

[5] –حسن أحمد محمود – المرجع السابق – ص199 .

[6] –لعل أحد عوامل الهجرة بالاضافة الى الدافع الاقتصادي يتمثل في ضغط قبائل بني سليم وبني هلال الذين أكتسحوا هذه المنطقة خلال القرن الحادي عشر الميلادي –ابن خلدون – المصدر السابق – ج6 – ص16.

[7] –حسن أحمد محمود – المرجع السابق –ص199 .

على طبقة معينة بل كانت تضم عددا كبيراً من الطوارق ويستند هذا الترجيح إلى التأثير الكبير للطوارق على المنطقة من جهة والى نجاحهم في إخضاع شعب الزغاوة وتكوين أول مملكة في منطقة بحيرة تشاد من جهة أخرى[1] .

3- القبائل العربية :

لقد اندفعت القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية نحو مصر وبلاد المغرب بعد انتهاء مرحلة الفتح العسكري مع نهاية القرن الأول الهجري (السابع ميلادي) [2]، وانتقل بعضها من مصر وبلاد المغرب إلى منطقة بحيرة تشاد ، حيث كان لهم دور ملموس في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك المنطقة ، وقد ذكر القلقشندى بلاد السودان ضمن البلاد التي وصل إليها العرب الذين وصفهم بأنهم (ملؤوا الآفاق ، وعمروا الأقطار) [3]، ويرى بعض الباحثين أن الهجرات العربية إلى مصر وبقية بلاد المغرب كان من أسبابها حل الأتراك محلهم في الجيش العباسي أيام المعتصم [4] وكان من أبرز القبائل العربية التي وصلت إلى منطقة بحيرة تشاد قبائل جدام وجهينة ولخم[5]، ثم استمر تدفق القبائل العربية على المنطقة حيث سيطر عرب بني هلال وبني سليم على مناطق بلاد المغرب إذ يؤكد الإدريسي سيطرة هؤلاء العرب على زويلة وما حولها [6].

---

[1] -من خلال دراستنا لتعدد القبائل في منطقة بحيرة تشاد سواء أكانت مستقرة أو وافدة رأينا من الصعب على طبقة صغيرة أن تؤثر على هذا التعدد القبلي وتنجح في إقامة دولة الكانم والبرنو .

[2] - لقد استمرت الحملات العسكرية على بلاد المغرب طيلة النصف الثاني من القرن الاول الهجري حيث بدأت هذه الحملات المنظمة بتولي عقبة بن نافع سنة 45هـ/665م وإنتهت بإتمام موسى بن نصير لعملية الفتح سنة 95 هـ/713م – لمزيد من التفاصيل انظر : ابن عبدالحكم – فتوح افريقيا والاندلس

[3] -القلقشندي – المصدر السابق – ج1 – ص19 ,

[4] مصطفي أحمد علي ــ اللهجات العربية في الحزام السوداني الأوسط والشرقي ــ مجلة دراسات أفريقية ــ الخرطوم ــ مركز البحوث والدراسات الافريقية ــ عدد 27 ــ يونية 2002 ــ ص

[5] - اليعقوبي – البلدان – ص100 .

[6] -الادريسي – المصدر السابق – ج1-ص313

ومن جهة أخرى فإن الصراع بين القبائل العربية الوافدة وبين السكان المحليين حول أهم عناصر الحياة في المنطقة وهما الماء والكلأ قد دفع بهولاء السكان إلى الهجرة نحو منطقة بحيرة تشاد حيث يشير ابن سعيد إلى هذا الصراع بقوله : (وكثيراً ما كانت تقع الفتنة بين سكان كاوار وبرابرة الصحراء وأعراب فزان على هاتين البحيرتين) [1] ، وقد استقرت القبائل العربية في المناطق المحيطة ببحيرة تشاد وانتشروا حتى إقليم دارفور [2] ، وأطلق عليهم لقب (شوا) [3]، لقد حافظت القبائل العربية في منطقة بحيرة تشاد على الكثير من عاداتها وتقاليدها خاصة من سكن منهم في البادية ومارس حياته الطبيعية في الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلأ والماء ، أما الذين استقروا في المدن فقد اندمجوا مع العناصر المحلية. حتى أنهم (أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ، ممتزجين بالأفارقة) [4]، ولعل أكبر دليل على وجود القبائل البدوية التي لم تخضع لأي سلطة هو مهاجمة بني جدام لأطراف مملكة بورنو في عهد عثمان ابن إدريس (789-793 / 1387-1390م) الذي أرسل يشكوهم إلى السلطان برقوق بمصر [5] .

إن تأثير القبائل العربية على التكوين السكاني في دولة الكانم كان بارزاً من حيث انتشار العادات والتقاليد العربية في المنطقة وتأثر السكان المحليين بأنماط الحياة التي يعيشها العرب حتى أن بعض القبائل المحلية رغم اصولهم غير العربية إلا أنهم أصبحوا عرباً في اللغة والحياة الاجتماعية[6]، وقد برز التأثير العربي بصفة خاصة في منطقة شرق بحيرة تشاد بحكم استقرار أغلب القبائل العربية

---

[1]- يقصد بالبحيرتين بحيرة سول وبحيرة كاوار(انظر صباح ابراهيم الشيخلي–المرجع السابق – ص126)

[2] –طرخان – المرجع السابق – ص29 .

[3]- لقد ناقشنا مدلول هذا الاسم في الفصل الثاني من هذا المبحث (انظر ص26) .

[4] –الوزان – المصدر السابق –ج1– ص41 .

[5] –انظر الرسالة كاملة في الملحق رقم (1) .

[6] –ابراهيم صالح – المرجع السابق – ص43 .

بها[1]، ولعل وجود العرب كفرسان في جيش دولة الكانم والبرنو[2] يؤكد الاختلاط الكامل بين العرب والعناصر المحلية [3]كما يؤكد من جهة أخرى ثقة حكام الكانم والبرنو بالعناصر العربية بدليل اعتمادهم عليها في سلاح الفرسان ، وأخيراً يذكر الحموي عند حديثه عن بلاد الكانم ما يؤكد التأثير العربي على هذه البلاد خاصة فيما يتعلق بالامور الاجتماعية حيث يقول عن أهل كانم (وهم على زى العرب وأحوالهم) [4].

تأثر العادات والتقاليد في الكانم والبرنو ببلاد المغرب :

تتشكل العادات والتقاليد في أي مجتمع من المجتمعات بمجموعة من أنماط السلوك اليومي الذي يرتبط بالتكرار حتى تصبح جزءاً من حياة المجتمع وقد تتأثر هذه الأنماط بعوامل داخلية أو خارجية تؤدي إلى نهاية بعضها واكتساب أنماط جديدة تتلائم مع تلك الأوضاع افرزتها تلك العوامل ، وينطبق ماذكرناه على العادات والتقاليد في مجتمع الكانم والبرنو حيث تأثرت بعاملين مهمين هما الإسلام والهجرات ، وحيث إن موضوع بحثنا يتناول العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو فمن الممكن أن نقول بكل اطمئنان أن الإسلام كان أكبر عامل مشترك وحد أنماط الحياة الاجتماعية بين المنطقتين [5] ولو ألقينا نظرة على بعض العادات التي كانت سائدة في مجتمع الكانم والبرنو قبل الإسلام لتبين لنا أثر هذا الدين في تغير الكثير من هذه العادات والتقاليد ، وقد عرف مجتمع الكانم والبرنو بعض العادات المرتبطة بالمعتقدات السائدة قبل انتشار الإسلام منها عبادة أوثان

---

[1] – اليعقوبي– البلدان– ص 100– طرخان – المرجع السابق – ص32 .

[2] –طرخان – المرجع السابق – ص32 .

[3] - الوزان – المصدر السابق –ج1– ص41 .

[4] - الحموي – المصدر السابق ج4 – ص432 .

[5] - من المعروف أن الاسلام لم يكن دينا كهنوتياً يهتم بجانب العبادة فقط بل كان ديناً شاملاً جاء لتنظيم كل ما يتعلق بحياة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتصبح حركة الحياة في المجتمع مرتبطة بهذا الدين .

كانت تسمى الدكاكير [1] كما أنهم كانوا يدفنون مع الميت أعز ممتلكاته من الحلي والألبسة والأسلحة [2] وكانوا يقدسون ملوكهم إلى درجة أنهم يعدونهم مسؤولين عن الحياة والموت والمرض والصحة[3] ، وكانت يد الملك مطلقة في رعاياه يسترق منهم من يشاء [4] .

لقد تأثرت هذه العادات بقدوم الهجرات المبكرة من بلاد المغرب كهجرات التيبو والطوارق الذين استقروا في بلاد الكانم وحملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وبعد انتشار الإسلام في بلاد المغرب ووصوله إلى بلاد الكانم والبرنو بدأت بعض العادات والتقاليد المخالفة لتعاليمه تنتهي بشكل تدريجي ولعل أشهر هذه العادات عادة تقديس الملوك ، وعادة الوراثة من ناحية الأم[5] ، وحلت محلها عادات ذات طابع إسلامي حيث طبقوا شريعة الإسلام في مسائل الزواج والطلاق والميراث [6]. كذلك اشتهر أهل الكانم والبرنو بالمواظبة على الصلاة في المساجد وضربهم أولادهم عليها حتى أن الإنسان (إذ كان يوم الجمعة ولم يبكر إلى المسجد لم يجد مكاناً يصلي فيه لكثرة الزحام)[7] وينقل إلينا أبن بطوطة صوراً من عادات سكان مالي في الحرص على حفظ القرآن حيث قال : (ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ، مررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معه ، ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عني الشاب وضحك فقيل لي إنما قيد

---

[1] - البكري – المصدر السابق – ص172 .

[2] - الدمشقي – مصدر سابق – ص286 .

[3] –الحموي – مصدر سابق – ج 3 – ص 142 .

[4] - المصدر نفسه – ج 3–ص142 .

[5] - الحمو ي– المصدر السابق–ج2–ص391 – انظر ايضاً: طرخان – المرجع السابق – ص 34

[6] –توماس ارنولد – المرجع السابق – ص77 .

[7] - فضل كلود – المرجع السابق – ص228 .

حتى يحفظ القرآن)[1]، ولاشك أن مجتمع الكانم والبرنو قد تأثر بهذه الظواهر بحكم اتصاله ببلاد مالي .

وكذلك أصبحت المحافظة على النظافة إحدى العادات السائدة في مجتمع الكانم والبرنو بحكم ارتباطها بالوضوء لغرض الصلاة ، كما اتبعوا التعاليم الإسلامية في الجنائز ودفن الموتى حيث كان يتصدر المشي أمام الجنائز العلماء وحفاظ القرآن، ثم يتلى القرآن مراراً بعد دفن الميت ويوهب ثوابه له ثم توزع الصدقات على الفقراء وطلبة العلم وحفاظ القرآن [2] .

إن ماذكرناه من معالم التغيير والتقاليد بفعل الإسلام والتأثيرات المغربية لا يعني أن مجتمع الكانم والبرنو قد أصبح خالياً من العادات القديمة في فترة وجيزة ، فتغير المظاهر الاجتماعية أمر ليس من السهل وقوعه بل يحتاج إلى فترة لارتباط هذه المظاهر بحياة الناس ومشاعرهم فقد استمرت بعض العادات الوثنية بعد انتشار الإسلام في الكانم والبرنو كذبح الذبائح لبعض الأشياء والكائنات الحية كالحيات ، كما ربطوا بين الأعياد الإسلامية وبعض الأعياد القديمة لديهم مثل حلول الفصل المطير [3]، ويكفي أن نعرف في هذا المجال أن الوثن المعروف باسم (ميون) Mune استمر موجوداً مع اعتقاد السكان أنه السبب في انتصاراتهم حتى عهد دونمه دباليمي (618- 657/1221-8125م) رغم دخول الإسلام للمنطقة قبل هذا الماي الذي قام بتحطيم هذا الوثن مبرهناً على بطلان مثل تلك المعتقدات الجاهلية [4]، ولا ننسى أخيراً دور التجارة في نقل الكثير من العادات والتقاليد بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو والقضاء على بعض العادات السيئة الموجودة في المنطقة كالإغارة وقطع الطريق والاستيلاء على ممتلكات التجار خاصة . وقد عرفنا إن بعض التجار كان يقيم لفترات طويلة في بلاد الكانم

---

[1] - ابن بطوطه – المصدر السابق – ج2-ص704 .

[2] –المصدر نفسه – ص 450 – لازالت عادة قراءة القرآن بقصد إهداء ثوابه للميت وإخراج الصدقات موجودة حتى العصر الحاضر في الكثير من مناطق بلاد المغرب .

[3] – ابن فودي –المصدر السابق – ص 34 .

[4]- Palmer – The Borun Sahara .P 184 .

والبرنو ولاشك إن اختلاطه بالسكان خلال هذه الفترة قد نقل إليهم بعض العـــادات والتقاليد التي جلبها هؤلاء التجار من بلاد المغرب .

المظاهر الاجتماعية في الكانم والبرنو وتأثرها ببلاد المغرب :

الملابس :

لم تذكر لنا المصادر شيئاً يذكر عن ملابس سكان الكانم والبرنو في فتـــرة مبكرة ولكن المرجح إنهم لم يختلفوا بشكل كبير عن غيرهم مـــن القبائـــل التـــي وصلت المنطقة في هجرات متفرقة فالحموي يذكر أن ملابس ملوك الزغاوة تعتمد على الصوف بينما يصف رعاياه بأنهم عراة مـــؤتزرون بـــالجلود [1] ، ويؤكـــد الإدريسي اعتماد السكان على الجلود بقوله : (ولباسهم الجلود المدبوغة يـــسترون بها) [2] . ولاشك أن ملابس الكانم والبرنو قد تأثرت إلى حد كبير ببلاد المغـــرب عن طريق التجارة والهجرات فعادة اللثام التي اشتهر بها الطوارق حتى إنهم كانوا (اهل لثام وبرقع ازرق لا يزال يمشي الرجال بتلك البراقع والنـــساء مكـــشفات الوجوه) [3]، قد انتقلت إلى الكانم والبرنو ولكنها اقتصرت على الفرســـان حيـــث ذكرت بعض المصادر أن (عساكرهم يتلثمون) [4] ، كما عرف أفـــراد الجـــيش العمامة حيث ذكر المسعودي أن الجندي الكانمي كان يضع على رأســـه العمامـــة وطرفها يتدلى [5] . ولا شك أن العمامة من مظاهر اللباس المنتـــشرة فـــي بـــلاد المغرب مما يوحي بانتقال هذا المظهر إلى بلاد الكانم والبرنو ، وقد لعبت التجارة بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب دورا مهماً في تعرف سكان الكانم والبرنـــو على أنواع جديدة من الملابس ، وقد أصبحت هذه الملابس محـــل إعجـــاب مـــن

---

[1]- الحموي – المصدر السابق – ج3– ص 142 .

[2]- الادريسي – المصدر السابق – ج1– ص30 .

[3]- العمري – المصدر السابق –ج2 ص95.

[4]- الادريسي – المصدر السابق – ج1–ص 13،القلقشندي – المصدر السابق –ج5– ص 271.

[5]- المسعودي – المصدر السابق ج 1 – ص 243 .

البلاط الحاكم ففي عهد دونمه دباليمي (618-657هـ / 1221-1258م) كانت الثياب تحمل إليه من الحضرة التونسية[1]، بينما يصف الحموي لباس ملوك الزغاوة بأنها ثياب رفيعة من الصوف بالأسماط والخز السوسي [2] ، ولاشك أن نسبة الخز إلى مدينة سوسة [3] يؤكد أثر العلاقات التجارية في وصول أنواع من الملابس المغربية إلى دولة الكانم والبرنو ، وقد استغل تجار الكانم والبرنو متاجرتهم بالرقيق عن طريق زويلة في الحصول على ثياب مغربية ، وصفت بأنها (ثياب قصار حمر) [4] ويبدو أن الثياب المجلوبة من بلاد المغرب الأدنى لا يقدر على شرائها إلا أفراد الطبقة الحاكمة وكبار التجار بسبب ارتفاع ثمنها [5]، وهناك عادة انتشرت في بلاد الكانم والبرنو بعد وصول الإسلام إلى تلك المنطقة وهي الحرص على ارتداء ملابس خاصة ليوم الجمعة ذات لون أبيض [6] ، فهذه العادة بقدر ما تدل على تمسكهم بأبسط تعليمات السنة النبوية تدل أيضاً على تأثرهم ببلاد المغرب التي توجد فيها نفس العادة ولاشك أن هذا التأثير قد جاء عن طريق الدعاة والتجار الذين يستقرون في بلاد الكانم والبرنو لفترات طويلة .

لقد عرف سكان الكانم والبرنو عن طريق التجارة بالإضافة إلى الملابس المغربية الحلي وأغلبها عبارة عن حبات تستعمل كعقود للنساء ، كذلك استعمل

---

[1] -الحموي – المصدر السابق – ج3-ص283 .

[2] -المصدر نفسه- ج3 – ص 142 .

[3] - يرى بعض الباحثين أن المقصود بها مدينة سوس الواقعة جنوب المغرب الاقصى ، ولكن المرجح أن المقصود وهي مدينة سوسة بالمغرب الأدنى لازدهار العلاقات التجارية بين الكانم والبرنو والدولة الحفصية ويؤيد هذا ما ذكرناه من أن الثياب كانت تحمل إلى دونمه دباليمي من الحضرة التونسية كما يؤكد هذا قول القيرواني عن مدينة سوسة (وبها تقصر الثياب الرفيعة وإليها تنسب الثياب الفائقة) انظر القيرواني – المصر السابق – 304 .

[4] -البكري – المصدر السابق – ص11 .

[5] - فضل كلود – المرجع السابق – ص 281 .

[6] - ابن بطوطة – المصدر السابق – ص 690

النحاس كأساور وخلاخيل وأقراط [1] ، وعرف الكانميون أيضاً الودع الذي كان يجلب من بلاد المغرب وكان إلى جانب قيمته الشرائية يستعمل كأدوات زينة تعلقه النساء على الصدور وفوق ضفائر شعر الرأس [2] ، كذلك عرف أهل الكانم والبرنو العطور التي كانت تجارتها ذات اسواق مزدهرة [3] ولا شك أن حرصهم على اقتناء العطور واستعمالها قد ارتبط إلى حد كبير بحرصهم على النظافة التي دعت إليها التعاليم الإسلامية ، كما أن استعمال العطور قد سرى في مناطق السودان في بعض البيوت أسوة بتونس وفاس وغدامس ، وقد عرف الكانميون العطور الأوروبية عن طريق بلاد المغرب[4]، ولكن المرجح أن هذا النوع من العطور كان باهظ الثمن ويقتصر استعماله على الطبقات الموسرة كالمايات ورؤساء العشائر والقضاة والوجهاء وكبار التجار .

لقد ذكرنا في حديثنا عن العلاقات الاقتصادية أن الذهب الذي اشتهرت به ممالك السودان الغربي لم يكن سلعة أساسية في تجارة بلاد الكانم ولكن هذا لا يعني عدم وجوده كأحد مظاهر الزينة في دولة الكانم ولكن نقصه قد جعل استعماله مقتصراً على الملوك حيث يصف لنا الوزان ثراء أحد ملوك بورنو بقوله (وقد رأيت كل ما يجهز به خيله من ركابات ومهامز وأعنة كلها من الذهب ، وكذلك القصاع والأواني معظمها من الذهب والسلاسل حتى سلاسل كلاب الملك كلها من الذهب الخالص [5]

هكذا لاحظنا التأثير الواضح لبلاد المغرب على دولة الكانم والبرنو في هذا الجانب من المظاهر الاجتماعية وهو جانب الملابس وأدوات الزينة ورأينا أن أغلب أنواع الملابس والأدوات قد جاءت عن طريق القوافل من بلاد المغرب .

---

[1] -فضل كلود – المرجع السابق – ص 280 .

[2] - المرجع نفسه – ص 230 .

[3] - المرجع نفسه – ص 281

[4] -المرجع نفسه – ص 280 .

[5] -الوزان – المصدر السابق – ج1– ص177 .

الأعياد والاحتفالات :

لاشك أن لكل شعب أياماً من السنة تتميز عن غيرها من الأيام بارتباطها بمناسبات معينة ويظهر فيها الناس ألواناً من الفرح والتمتع بأنواع من الأكل والشراب ، وترتبط الأعياد في أحيان كثيرة بالمعتقدات الدينية ، وإذا طبقنا هذا على بلاد الكانم لوجدنا أن أعياد الكانميين قبل انتشار الإسلام قد ارتبطت بالمعتقدات الدينية فقد كان لبعض القبائل أماكن مقدسة تلجأ إليها عند الحاجة ففي حالات الجفاف مثلاً كانوا يذهبون إلى هذه المناطق بشكل جماعي ويقدمون اللحم والدهن ثم يتضرعون لإنقاذهم من الجفاف [1] ، وقد ذكر البكري أن الزغاوة كانوا عبدة أوثان تسمى الدكاكير [2]، والمرجح أن للزغاوة أياماً معينة يحتفلون فيها بتقديم القرابين لهذه الأصنام على عادة الشعوب الوثنية ، كذلك ذكرت لنا المصادر احتفال الكانميين بصنم (ميون) وارتباطه لديهم بالنصر على الأعداء .[3] وبعد انتشار الإسلام حلت محل هذه الأعياد الوثنية أعياد إسلامية لعل أشهرها أعياد الفطر والأضحى والمولد النبوي فقد انتقلت مظاهر الاحتفال بهذه الأعياد من بلاد المغرب بواسطة التجار والدعاة والهجرات القبلية وأصبحت هذه المظاهر متشابهة بين المنطقتين حيث كان الناس يرتدون أحسن ثيابهم في الأعياد والمناسبات [4] ، وفي هذه المظاهر تأثر واضح ببلاد المغرب التي اعتاد الناس فيها الاحتفال بتلك الأعياد (بإيقاد الشمع والتزين بما حسن من الثياب وركوب

---

[1]- الشاطر بوصيلي – المرجع السابق – ص34 .

[2]- البكري – المصدر السابق – ص 172 .

[3]- ابراهيم صالح – المرجع السابق – ص 81 .

[4]- فضل كلود – المرجع السابق – ص 230 .

فاره الدواب لإظهار الفرح والسرور)[1] ، ولعل مـا ميـز احتفـالات الكـانميين بالأعياد الدينية أن الاحتفالات عندهم تبدأ من ليلة العيد فالناس فـي هـذه الليلـة يقضون جزءاً من ليلهم في سمر وطرب قد يمتد إلى الصباح الباكر ، وتشمل هذه السهرات من لا يرتبطون بأعمال يومية رتيبة مثل كبار الملاك وبعض التجار .

بالإضافة إلى الأعياد الدينية عرف الكانميون الاحتفالات التي تقام بمناسبة تتـويج الملوك حيث كان أغلب الناس يبيتون بحاضرة الدولة فيما يشبه العيـد ، ويـسمع الصخب والغناء والرقص على دقات الطبول في مختلف أنحاء المدينة [2] .

كما نلاحظ تشابه المواكب السلطانية بين الدول التي قامت فـي المغـرب ودولـة الكانم والبرنو فقد وصف لنا المراكشي موكب عبد المؤمن بن علي بقوله (وقـد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية مابين بنود وألوية وهزت أكثر من مائتي طبل وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الفخامة يخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من دويها) [3] كما كان السلطان الحفصي (مرفوقاً في جولاته الرسمية بتلك الرموز السلطانية المرئية و المسموعة إلى أبعد حد والمنتشرة في العالم الاسلامي على أوسع نطاق ، أعني البنود والطبـول)[4]، ونجد نفس الصورة تقريباً عند سلاطين الكانم والبرنو حيث يقـول القلقـشندي : (جرت العادة أن ملكهم إذا ركب أن يحمل على رأسه المظلة راكب وينشر علـى رأسه علم ، وتضرب أمامه الطنابير والطبول والأبـواق بقـرون لهـا صـناعة محكمة)[5] ، ونلاحظ هنا مدى تأثر سلاطين الكانم في هذه المواكب ببقية سلاطين العالم الإسلامي وبوجه خاص السلاطين الحفصيين الذين ارتبطوا بهم بمراسـلات ووفود بما يوحى بانتقال هذه العادات إلى دولة الكانم والبرنو.

---

[1] - محمد المنوني ــ ورقات عن حضارة المرينين ــ الرباط ــ كلية الآداب والعلـوم الإنـسانية ــ جامعة محمد الخامس ــ 1996 ــ ص 522.

[2] – القلقشندي –المصدر السابق– ج5 – ص 301

[3] – المراكشي – المصدر السابق – ص 163

[4] - برنشفيلك – المرجع السابق – ج 2– ص 29 .

[5] –القلقشندي – المصدر السابق – ج 5 – ص 301 .

لقد اكتفت المصادر والمراجع بذكر هذه الأعياد ولكن من الممكن أن نستنتج وجود مناسبات احتفالية أخرى في مجتمع الكانم والبرنو مثل الاحتفالات بختم القرآن الكريم ، وقد بنينا هذا الاستنتاج على ما يلي :

1- وجود هذه العادة في أغلب أجزاء العالم الإسلامي مما يجعلنا نرجح انتقالها عن طريق الدعاة و التجار إلى بلاد الكانم والبرنو .

2- اهتمام أهل الكانم والبرنو بتحفيظ أولادهم للقرآن الكريم وقد ذكرنا فيما سبق ما رواه ابن بطوطة عن اهتمام أهل مالي الذي وصل إلى درجة وضع قيود ثقيلة في رجلي الصبي حتى يحفظ القرآن [1] فهذا الحرص لابد أن يقابله الاحتفال بختم القرآن الكريم وإن كانت هذه الاحتفالات لا تتخذ صفة التحديد الزمني مثل الأعياد الدينية .

3- إن احترام السلاطين للعلماء وإصدار المحارم التي تعد تكريماً مادياً ومعنوياً لهؤلاء العلماء كان بدون شك دافعاً للأهالي لتعليم أولادهم والاحتفال بوصولهم إلى هذه المرتبة .

العمارة :

يرتبط فن العمارة إلى حد كبير بالبيئة المحلية ليلائم طبيعة البلاد ومناخها ، ورغم قلة المعلومات التي وصلتنا عن فن العمارة في دولة الكانم والبرنو إلا أن بعض الإشارات التي ذكرتها المصادر تعطينا فكرة عن هذا المظهر الحضاري .

لقد كان الشكل المعماري القديم في بلاد الكانم يعتمد على البيئة نفسها فيبنى من الطوب المخلوط بالتبن [2] وبعد قيام الدولة أصبحت الحاجة ملحة إلى نوع من البناء الخاص بالسلاطين فعرفت ظاهرة بناء القصور من الطوب الأحمر المحروق، ومن جهة أخرى فإن انتشار الإسلام في بلاد الكانم والبرنو قد حتم ظهور بناء معماري جديد على المنطقة وهو المسجد الذي نتوقع وجوده منذ عهد

---

[1] -ابن بطوطة – المصدر السابق – ج2- ص704 .

[2] -فضل كلود المرجع السابق – ص107

الماي بولو[1] الذي كان يحكم حوالي (411 هـ / 1020م) وإن كان المرجح أنه عبارة عن بناء بسيط لا يختلف عن الشكل المعماري القديم الذي ذكرناه فيما سبق . ثم دخل إلى المنطقة فن المعمار المغربي الأندلسي عندما اصطحب سلطان مالي (منسي موسى) عند عودته من الحج سنة (725هـ- 1325م) المعماري إبراهيم الساحلي الغرناطي [2] الذي بنى قصراً للسلطان به قبة مربعة الشكل وصفها ابن خلدون بانها (من أتقن المباني) ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بارضهم [3]، كما بنى هذا المعماري مسجد تينبكتو من الطوب المحروق الذي لم يكن معروفاً قبل ذلك في السودان الغربي وبنى مئذنة هرمية لهذا المسجد[4] ، والمرجح أن هذه الطريقة في البناء قد انتشرت في السودان الأوسط ووصلت إلى دولة الكانم والبرنو حيث اعتمد مايات الكانم والبرنو على الطوب المحروق في بناء القصور والمساجد ويؤكد هذا ما ورد من أن الماجيرا عائشة والدة ادريس الوما قد بنت لابنها قصراًمن الطوب الأحمر خارج العاصمة لتحميه من المؤامرات حتى يتولى الحكم[5] ، أما المساجد فقد ظهرت في شكل معماري يجمع بين المعمار الأفريقي القديم والمعمار المغربي الأندلسي ، حيث كان المسجد يبنى في هيئة مربع ثم ترتفع القاعدة وتتخللها الأعمدة التي توصل

---

[1] لقد بنينا هذا التوقع على ان الماى بولو هو اول مايات الكانم والبرنو اعتناقاً للاسلام مما يستدعي وجود مسجد في عهده لأهمية المسجد في أداء الشعائر الاسلامية و إن كان من المرجح أن يكون بناء بسيطاً .

[2] -ابراهيم الساحلي : لم تسعفنا المصادر بمعلومات حول مولد هذا الرجل ونشاته وكل ما نعرفه عنه أنه أحد الذين اصطحبهم منسى موسى في طريق عودته من الحج سنة 725هـ/1325 م وقد برع هذا الرجل في فن العمارة حيث بنى قصراً للسلطان منسى موسى ذكره ابن خلدون وأشاد به كما شاهده ابن بطوطة ، وقد توفى ابراهيم في تينبكتو .انظر: ابن خلدون – ج 6- ص239 .

[3] - المصدر نفسه – ج 6 – ص 239.

[4] - امين الطيبي – اثر الاسلام الحضاري في غانه ومالي في العصر الوسيط – ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء – طرابلس – كلية الدعوة الاسلامية – ص123 .

[5] -ابراهيم صالح – المرجع السابق – ص 88 .

بينها حينما تـــتـــقارب أجزاؤها العلوية على شكل هرمي ثم تبنى المئذنة في وسط السطح [1] .

أما ما ذكره بعض الباحثين من أن المساجد في بلاد الكانم كانت كلها مبنيـــة مـــن الحشيش والخشب حتى عهد ادريس الوما (978-1012 هـــ / 1570-1603 م) فهدمها كلها وبناها من الطوب[2] فتعتقد أن هذا الرأي يبتعد عن الواقع لأن دخول فكرة البناء بالطوب المحروق قد جاءت عن طريق ابراهيم الساحلي الـــذي دخـــل تينبكتو سنة(725هـــ - 1324م)[3] ،وبحكم وجود علاقات حضارية بـــين كـــانم ودولة مالى فلا يعقل أن تبقى هذه الطريقة مجهولة في الكانم لاكثر من قرنين من الزمان حتى عهد ادريس الوما . ونصل إلى أن المساجد قد عرفت في كانم منـــذ دخول الإسلام إلى هذه الدولة وقد زاد عدد المساجد بزيادة عدد المـــسلمين كمـــا تطور شكلها المعماري من النمط المعماري الأفريقي إلى النمط المعماري المغربي الأندلسي نتيجة لعلاقات دولة الكانم مع بلاد المغرب ومملكة مالى.

الأسرة :

لايختلف نظام الأسرة في دولة الكانم عن غيره من ممالك السودان الأوسط والغربي من حيث اعتماده على نظام الزواج . ويمكن القول بان بعـــض التقاليـــد الأسرية القديمة في بلاد الكانم والبرنو قد استمرت بعد انتشار الإســـلام [4] إلا أن هذه التقاليد قد تم تهذيبها بالتأكيد بما يناسب تعاليم الـــشريعة الإســـلامية وهنـــاك ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن الزوجة كانت في الفترة التـــي ســـبقت دخـــول

---

[1] - فضل كلود – المرجع السابق – ص 227 .

[2] - المرجع نفسه – ص 107

[3] – أبن خلدون– المصدر السابق–ج6–ص 239 –أنظر ايضاُ:ابراهيم صالح – المرجع الـــسابق – ص91

[4] - ديرك لانج – المرجع السابق – ص252 .

الاسلام للمنطقة تحمل معظم المسئوليات وكانت تتمتع بحرية واسعة[1] ،ومع وفود الهجرات القبلية وانتشار الإسلام اتسع نطاق الزواج واسهم في زيادة الاختلاط بين القبائل التي استقرت بالمنطقة .

لقد كانت الأسرة الكانمية تتكون كأي أسرة من الزوج والزوجة والأطفال ، وكانت المرأة في المجتمع الكانمي تقضي غالب أوقاتها في المنزل تصنع الطعام وتجلب الماء والوقود وترعى الصغار[2] ولا يعني هذا اقتصار مهمة المرأة على هذا الجانب بل كان منهن من كن يقمن بالأعمال التجارية فيبعن الأغذية والملابس والحلي وتتم عمليات البيع بالمقايضة والتبادل .

إن الاطلاع على أسماء وأصول بعض أمهات المايات تدل بما لا يدع مجالاً للشك على حرص هؤلاء المايات على مصاهرة العناصر القوية الوافدة إلى المنطقة حيث وضعوا نصب أعينهم الالتزام بالزواج من نساء نبيلات من الشمال فقط فعلى سبيل المثال إن أم عبد الجليل بن بيكورد (590-616 هـ/ 1193-1219م) وهي حواء بنت عبد الرحمن من قبيلة التيبو وينطبق هذا أيضاً على أم دونما ديباليمي التي تنتمي إلى التيبو ، بينما نجد أن ام ادريس الوما(978-1012هـ / 1570-1603م) هي ابنة إحدى سلاطين البولالا[3] ولاشك أن مثل هذه المصاهرة تؤدي إلى تقوية مايات الكانم والبرنو وتساعدهم على إحكام قبضتهم على هذه المنطقة ذات العناصر المختلفة (فالاختلاط و المصاهرة و التزاوج أمر مألوف ومعروف منذ أقدم العصور بل إنه مؤكد تمام التأكيد بين العرب و الزنوج والبربر)[4] ،والاختلاط عن طريق الزواج في منطقة بحيرة تشاد لم يقتصر على قبائل التيبو أو الطوارق بل شمل القبائل العربية التي استقرت في

---

(1) - حسين مؤنس – ابن بطوطة ورحلاته – القاهرة – دار المعارف – (د.ت) – ص 230 .

(2) –فضل كلود – المرجع السابق – ص 230 .

(3) –ابراهيم صالح – المرجع السابق – ص75 .

(4) – الوزان– المصدر السابق– – ج1–ص41–أنظر أيضاً عبد الفتاح الغنيمي المرجع السابق – ص20

المنطقة فبعض هذه القبائل حصل بينها وبين السكان تزاوج على نطـــاق واســـع ، وهناك بعض القبائل العربية في تشاد لم يبق لها من عروبتها إلا الاسم [1]

لقد أثر الإسلام في مجال تربية الأطفال داخل الأسرة الكانمية فبعد أن كان الطفل يربى ليكون مقاتلاً يدافع عن القبيلة ، أصبح يربى ليكون عالمـــاً يتـــصدر المجالس للتدريس والفتوى ولاشك أن هذا التغير في أنماط التربيـــة يرجـــع إلـــى انتشار الإسلام وتعاليمه التي تحث على طلب العلم كما يرجع إلى اخـــتلاط أهـــل الكانم بالتجار القادمين من بلاد المغرب وتأثرهم بالكثير من المظاهر الحـــضارية التي جلبها هؤلاء التجار ، وقد رأينا حرص أهل مالي على تحفيظ أولادهم للقرآن حتى أنهم يضعون القيود في رجلي الصبي حتى يحفظ القرآن [2]، وانتقـــال هـــذا الاهتمام الى اهل كانم .

الطبقات الاجتماعية :

يجب أن نعترف في البداية بأن نظام الطبقات في المجتمعات القبلية لـــيس واضحاً بصورة كبيرة على اعتبار أن القبيلة محتاجة لجميع أفرادها فـــي الـــدفاع عنها وهي بالتالي تعمل على تقوية أواصر العلاقة بين هؤلاء الأفراد بدون تمييـــز بينهم ، ويبرز نظام الطبقات في تجمعات المدن حيث يوجد الاســـتقرار الـــوظيفي الذي ينشأ عنه نظام الطبقات ، وينطبق هذا بالتأكيد على دولة الكانم والبرنو فلـــم يكن نظام الطبقات بارزاً خلال الفترة التي تميزت بوجود عدة قبائل في المنطقـــة حيث اختلط العرب و البربر والطوارق بالسكان الأصليين في تلك البلاد [3]. وبعد قيام الدولة وما تبعها من ظهور بعض المؤسسات بـــدأت تبـــرز ملامـــح بعـــض الطبقات الاجتماعية التي اتخذ بعضها مظهراً سياسياً وبعـــضها الآخـــر مظهـــراً اقتصادياً بينما اتخذ بعضها مظهراً علمياً .

ويمكن تقسيم هذه الطبقات على النحو التالي :

---

(1) –فضل كلود – المرجع السابق – ص88 .

(2) –ابن بطوطة – المصدر السابق – ج2– ص704.

(3) –فضل كلود – المرجع السابق – ص29 .

1- الطبقة الحاكمة :

وتشمل الماى الذي كان يختص باحترام وتعظيم كبير من قبل رعاياه[1]، ويصفه الحموى بأن يده مطلقة عليهم وكأنه مالك البلاد وليس حاكماً لها فهو المتصرف في رعاياه ، وفي أنعامهم من ماشية وخيل وأغنام برضا كامل منهم مستسلمين لقيادته [2]، كما تضم هذه الطبقة أسرة الماى وخاصة أمه التي كانت تتمتع بميزات كبيرة وتشارك في إدارة الحكم ، كما تشمل هذه الطبقة أعضاء مجلس الشورى الإثنى عشر الذين لم تكن مدة عضويتهم محددة بفترة معينة بل كان أعضاء المجلس يبقون في مناصبهم مدى الحياة بل ويتوارثون هذه العضوية [3]، ولاشك أن هذه الوضعية قد كرست الوضع الطبقي لأعضاء هذا المجلس كما أن وضعهم الاقتصادي قد اسهم من جهة أخرى في بروزهم كطبقة اجتماعية مميزة حيث تمتعوا بنفوذ واسع وثروات طائلة باعتبارهم من اصحاب الاقطاعيات الكبيرة [4].

2- طبقة التجار والعلماء :

لاشك أن العلاقات التجارية المميزة مع بلاد المغرب وتنوع السلع المجلوبة عن طريق القوافل التجارية قد أدى إلى ظهور طبقة محترفة للتجارة تسيطر على بيع وشراء السلع القادمة من بلاد المغرب وكانت هذه الطبقة تتكون من التجار المحليين والقادمين من بلاد المغرب الذين يستقرون بعض الوقت في دولة الكانم وقد استقر بعضهم بشكل نهائي فقد ذكر الوزان في حديثه عن إقليم بورنو وجود قرى عديدة يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض [5] ، وكان لطبقة كبار التجار علاقة مصلحة متبادلة مع الطبقة الحاكمة فقد كان من مهمة الطبقة الحاكمة توفيرالحماية للقوافل التجارية عن طريق إرسال الحملات

---

[1]- ابن بطوطة – المصدر السابق – ج 2 – ص711 .

[2] –الحموي – المصدر السابق – ج3 – ص142 .

[3] Davidson ,Basll –OP-Cit-P 103.

[4]- طرخان – المرجع السابق – ص 156 .

[5]- الوزان – المصدر السابق – ج2–ص 176 .

العسكرية [1] . وإقامة القلاع لغرض حراسة طريق القوافل . وكان دور التجـــار بالمقابل توفير السلع الثمينة لهذه الطبقة الحاكمة خاصة إذا عرفنا أن بعض هـــذه السلع لها علاقة بتقوية الجهاز العسكري للدولة وتأتي في مقدمة هذه السلع الأسلحة والخيول[2] والتي كانت تجلب من بلاد المغرب بالإضافة إلى بعض السلع الأخرى التي يحرص الحاكم على اقتنائها مثل الخز السوسي الذي اشتهر كلبـــاس للملـــوك [3]، وهكذا مثل كبار التجار طبقة مميزة في مجتمع الكانم والبرنو واعتمدت فـــي تميزها على عوامل الثراء الذي اكتسبوه من سيطرتهم على تجارة القوافل وعلـــى علاقاتهم بالطبقة الحاكمة في البلاد .

أما طبقة العلماء فلم تكن معروفة في المنطقة قبل انتشار الإسلام بين أفراد الأسرة الحاكمة فالإسلام حث على طلب العلم وكرم العلماء ومن هنا كان احترام هـــؤلاء العلماء في مجتمع الكانم والبرنو انعكاسا لإيمانهم بهذه التعاليم الإسلامية ، كما أن اعتناق حكام الكانم والبرنو للإسلام قد جعلهم في حاجة إلى نوع من المستـــشارين الذين يفقهونهم في أمور دينهم ويساعدونهم على إدارة شؤون المملكة ، وقد بـــرز كثير من العلماء الذين ارتبطوا بالبلاط الحاكم في الكانم والبرنو يأتي على رأسهم محمد بن ماني الذي كان له دور بارز في نشر الإسلام في أوساط الأسرة الحاكمة [4] ، وكذلك محمد بن مسبارمة بن عثمان الذي استقر في الكانم أيام الماى علـــى حاجي (881-909هـــ/1476-1503م) وأصبح وزيره ولازمه ليل نهـــار [5]،

---

[1] -عندما سيطر قراقوش على منطقة فزان وشعر حكام الكانم بأن هذه السيطرة تمثل تهديداً لتجارة الكانم والبرنو مع بلاد المغرب قاموا بارسال حملة عسكرية خلال منتصف القرن السابع الهجـــري (الثالث عشر الميلادي) واستولت هذه الحملة على المنطقة بعد ان تمكنت من قتل ابن قراقوش (انظر ابن خلدون – المصدر السابق – ج6 – ص368)

[2] -القشتالي – المصدر السابق – ص 67 .

[3]- الحموي – المصدر السابق – ج3 – ص 142 .

[4] Palmer – the Bornu Sahara and Sudan – p 14

[5] Apid – p16 .

وما يؤكد المميزات التي ميزت العلماء كطبقة مقربة من البلاط الحاكم صدور ما يعرف بالمحارم كتكريم من الحكام لهؤلاء العلماء وأولادهم من بعدهم[1].

3- الطبقة العامة :

وهذه الطبقة لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات وتتكون من صغار التجار والحرفيين والمزارعين حيث عرفت دولة الكانم بعض الصناعات مثل صناعة الجلود وبعض الأسلحة وأدوات الزينة والملابس ، كما استغلوا وجود الأشجار في صناعة الأقداح كأواني للطعام ، ويبدو أن هذه الصناعات قد عرفت نظام الاحتراف أي وجود طبقة تقوم بهذه المهمة حيث (كان محترفو هذه الصناعة تسمع لهم جلبة بالأسواق من جراء الطرق الذي يباشرونه على الحديد) [2] ، كذلك تشمل هذه الطبقة صغار الفلاحين الذين استغلوا وفرة المياه في المنطقة فاحترفوا الزراعة وذكرت لنا المصادر أنواعاً كثيرة من الحبوب والفاكهة التي اشتهرت بها المنطقة [3] ، ويدخل ضمن هذه الطبقة أيضاً الرعاة حيث ساعدت طبيعة المنطقة على تربية الماشية والأبل [4]، وقد ساعد قدوم القبائل العربية إلى المنطقة واحترافهم لمهنة الرعي على مزيد من الاهتمام بهذه الثروة الحيوانية من قبل الطبقة الحاكمة فافسحوا لهم المراعي الشاسعة واعفوهم من دفع الضرائب المفروضة على السكان وتركوا لهم حرية التنقل من إقليم إلى آخر [5] ،وقد تباين المستوى المعيشي لهذه الطبقة تبعاً للظروف الاقتصادية المؤثرة على المهن التي احترفوها كما أن هذه الطبقة لم تكن ثابتة فلا شك أن بعض أفرادها يصبحون ضمن طبقة كبار التجار إذا حالفهم التوفيق في تجارتهم الصغيرة ، ولكنها في كل الأحوال تمثل أغلبية المجتمع .

---

[1] -سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الخامس الذي يتحدث عن العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو .

[2] -فضل كلود – المرجع السابق – ص271 .

[3] -المقدسي – المصدر السابق – ج1 – ص241 ، الادريسي – المصدر السابق – ص 13 .

[4] -الادريسي – المصدر السابق – ص13 .

[5]- فضل كلود – المرجع السابق – ص273 .

إن التأثير المغربي على مجتمع الكانم والبرنو يبدو واضحاً في نظام الطبقات الاجتماعية فلو استثنينا الطبقة الحاكمة باعتبارها موجودة في أغلب المجتمعات فإننا نلاحظ تأثير العناصر المغربية في ظهور بقية الطبقات ، فظهور طبقة التجار يمثل نتيجة منطقية لنشاط حركة القوافل بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب بل إن كثيراً من أفراد هذه الطبقة يرجعون إلى أصول مغربية وقد ذكرنا فيما سبق ما ذكره الوزان عن وجود تجار بيض وسود في مدن الكانم والبرنو [1].

كذلك فإن ظهور العلماء هي نتيجة لانتشار الإسلام في المنطقة على يد العناصر المغربية من تجار ودعاة ، وهي من جهة أخرى انعكاس للعلاقات القوية التي ربطت بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو في جميع المجالات فطائفة الفقهاء كانت تشكل طبقة مميزة في المجتمع المغربي، كذلك فإن مجتمع الطوارق قد عرف طبقة الفقهاء التي تكونت بعد ظهور الإسلام (وهي طبقة محترمة يقدرها الجميع وينظرون إليها على أنها المحافظة على الدين الإسلامي في مجتمع الطوارق) [2] ، أما الطبقة العامة فقد وجدت في بلاد المغرب وقد مثلت فئات كان نشاطها يتركز غالباً في الأسواق والشوارع والرحبات أو الميادين[3]، وهكذا فقد كانت الحياة الاجتماعية في بلاد الكانم والبرنو انعكاساً لمثيلتها في بلاد المغرب بحكم العلاقات التي ربطت بينهما حيث تسربت الكثير من العادات والتقاليد والمظاهر الاجتماعية مع قوافل التجار وهجرات القبائل إلى بلاد الكانم والبرنو فطبعتها بطابع يتشابه مع بلاد المغرب في الكثير من النواحي .

---

[1] -الوزان – المصدر السابق – ج2– ص 176 .

[2] -القشاط – المرجع السابق – ص65 .

[3] - لمزيد من التفاصيل حول نشاط هذة الطبقة في بلاد المغرب أنظر (المنوني – المرجع السابق – ص146–147) .